الفروق الدلالية بين التراكيب القرآنية المتناظرة عند السّهيلي

أ.م.د. أسيل متعب الجنابي/ كلية الآداب/ جامعة واسط

المقدمة

الحمدُ لله ربّ العالمين والصّلاة والسّلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ وعلى أصحابه الطيبين الطاهرين .

إنّ للخطاب القرآني خصوصية في التعبير ، بما يحمل في طياته من أسرار بيانية ، وقف أمامها العلماء وقفة إجلال وإكبار محاولين اكتشاف هذه الأسرار، وبيان أثرها الدلالي، لإيصاله إلى المتلقي، ليتسنى له معرفة المغزى من هذا الخطاب الجليل المعجز الذي انتظم بعضه مع بعض، فلا يستطيع أحد أنْ يرفع حرفا فيضع مكانه حرفا آخر، أو أنْ يستبدل لفظا بلفظ آخر، حتى جاءت تراكيبه منسبكة منتظمة ومن هؤلاء العلماء السّهيلي، إذْ وقف عند عدد من التراكيب المتناظرة مستنبطا الفروق الدقيقة بينها، مستعينا بقدرته العقلية المتميزة، فقد أدرك إدراكا تاما أنّ الاختلاف بين التراكيب المتناظرة في القرآن إنّما أوجبته السّياقات المختلفة التي وردت فيها هذه التراكيب، وإنّ المعنى قد فرض زيادة حرف أو لفظ أو نقصانه في تركيب آخر، أو تنكير لفظ في موضع ، وتعريفه في موضع آخر، أو استعمال جمع في موطن، واستعمال غيره في موطن آخر، وقد اقتضت الدقة أنْ ينتظم البحث في مبحثين يسبقهما التمهيد عن حياة السّهيلي، تضمن المبحث الأول: المخالفة بين التراكيب المتناظرة في الحروف، والمبحث الثاني: المخالفة في الأسماء، ثم ختمت البحث بأهم ما توصلت إليه من نتائج.

التمهيد: السّهيلي: حياته، مكانته العلمية .

حياته: نسبه، وفاته:

هو عبد الرحمن بن الخطيب أبي محمد عبد الله بن الخطيب أبي عمر احمد بن أبي الحسن اصبغ بن حسين بن سعدان وهو الداخل الأندلسي أبو قاسم وأبو زيد ولد سنة ثمان وخمسمائة في مدينة مالقة[١]. وهو خثعمي: بفتح الخاء الموحدة وسكون الثاء المثلثة وفتح العين المهملة وبعدها ميم ، هذه النسبة إلى خثعم بن أنمار وهي قبيلة كبيرة. والسّهيلي: بضم السين المهملة وفتح الياء وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها لام هذه النسبة إلى سهيل، وهي قرية بالقرب من مالقة سميت باسم الكوكب، لأنه لا يرى في جميع بلاد الأندلس إلاّ من جبل مطل عليها. توفي بحضرة مراكش يوم الخميس، ودفن وقت الظهر، وهو السادس والعشرون من شعبان سنة إحدى وثمانين وخمسمائة، رحمه الله تعالى[٢].

مكانته العلمية :

أخذ القراءات عن أبي داود الصغير سليمان بن يحيى وأخذ بعضها عن أبي منصور ابن الخير، وسمع من أبي عبد الله معمر والقاضي أبي بكر ابن العربي[٣]، كان ببلدة يتسوغ بالعفاف، ويتبلغ بالكفاف، حتى نمى خبرة إلى صاحب مراكش فطلبه إليها وأحسن إليه واقبل عليه وأقام بها نحو ثلاثة أعوام[٤] . وأجاز له أبو عبد الله ابن أخت غانم، وناظر في كتاب سيبويه عن أبي الحسين ابن الطراوة، وسمع منه كثيرا من كتب الأدب، عُمى وهو ابن سبع عشر، كان إماما في لسان العرب، يتوقد ذكاء، سمع منه أبو الخطاب بن دحية وجماعه[٥] .

قال عنه أبو جعفر بن الزبير: كان السّهيلي واسع المعرفة غزير العلم نحويا متقدما لغويا عالما بالتفسير، وصناعة الحديث، عارفا بالرجال والأنساب، عارفا بعلم الكلام وأصول الفقه، حافظا للتاريخ القديم والحديث ، نبيها صاحب اختراعات واستنباطات مستغربة[٦] . وله مؤلفات متميزة أهمها : الروض الأنف في شرح سيرة رسول الله (صلّى الله عليه واله وسلّم)، التعريف والإعلام فيما أبهم في القرآن من الأسماء والأعلام، وله كتاب نتائج الفكر في النحو، وكتاب شرح آية الوصية في الفرائض، ومسألة رؤية الله عزّ وجلّ في المنام ورؤية النبي (صلّى الله عليه واله وسلّم)، ومسألة السّر في عور الدجال، والقصيدة العينية – وشرح الجمل للزجاجي في النحو لم يتم، وله أشعار كثيرة[٧].

المبحث الأول: المخالفة في الحروف :

للحرف سرٌّ بياني في الاستعمال القرآني، لما له من اثر في التركيب ، فنجد تراكيب متناظرة اختلفت فيما بينها باستعمال حرف في موضع، وحذفه في موضع آخر، وهذا ما لاحظه السّهيلي ووقف على سبب الاختلاف متخذا من فلسفته النحوية عونا على التمييز والتدقيق في هذه الأساليب، ومن أهم الحروف التي جرى فيها هذا الاختلاف ما يأتي:

١- المخالفة في (الباء) بين الاستعمال وعدمه:

طرح السّهيلي في فصل (أدلة القائلين بأن الاسم هو المسمى) سؤالا بقوله: "إنْ قيل : ما فائدة دخول الباء في {فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ} (الواقعة٧٤) ولِمَ لم تدخل في {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى }[٨](الأعلى١) . وجوابه على السؤال إنّ دخول الباء في الآية الأولى ؛لأنّ التسبيح قد تضمن معنى آخر مضافا على معنى التنزيه والذكر وهو الصّلاة .أمّا الآية الثانية فالتسبيح فيها يدل على التنزيه، والذكر دون معنى يقترن به لذا لم تدخل الباء فيها قال السّهيلي : ((فإذا ثبت ذلك وأردت التسبيح المجرد فلا معنى للباء ، لأنه لا يتعدى بحرف جر ، لا تقول : (سَبّحتُ بالله) وإذا أردت التضمين لمعنى الصلاة دخلت الباء تنبيها على ذلك المعنى ، فتقول :(سبّح باسمِ ربّكَ) كما يقول : (صَلّ باسمِ ربِّك)، أي: مفتتحا باسمه ، وكذلك أيضا دخلت اللام في قوله تعالى:{سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ } (الحشر١)؛ لأنّه أراد التسبيح الذي هو السجود والطاعة، كما قال الله تعالى:{وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ}(النحل٤٩). فهذا يقوي ما تقدم من أنّ ذكر الاسم ها هنا تنبيه على الذكر بالقلب واللسان ، ألا ترى أنّ الصلاة لابد فيها من اللفظ باسم الله عند التكبير ولذلك لم يقل :(سبّح بربّكَ) تنبيها على ما تقدم))[٩] .

ولعلّ السّهيلي أراد بهذا التعليل أنْ يشير إلى أمر مفاده أن اللفظة إذا دلت على معناها الأصلي الذي وضعت له في اللغة فلا تحتاج إلى حرف تتعدى إليه ، فمعنى(سبحان الله تنزيه الله من السوء كذلك جاء عن رسول الله (صلّى الله عليه واله وسلّم) وأهل اللغة يفسرونه براءة الله من السوء))[١٠]. وعلى هذا لا يراد بقوله :{سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى } (الأعلى١) سوى تنزيه الله تعالى من السوء وتبرئته من النقص والعيب، لذا لا يحتاج فعل التسبيح إلى التعدية . أمّا الآية الأولى فلم يدل فيها فعل التسبيح على التنزيه المجرد بل تضمن معنى آخر وهو الصلاة، وعلى هذا احتاج إلى حرف الباء ، وهو حرف اختص من بين حروف الجر بأنه يدل على معنى التعدية المطلقة[١١] .

غير أن ما ذهب إليه السّهيلي يفتقر إلى الدليل ، لاسيما أن التركيب قد اقتطع من سياقات سابقة له قد ترشد إلى دلاله التسبيح المرادة، قال تعالى: (وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ لَوْ نَشَاء لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاء الَّذِي تَشْرَبُونَ أَأَنتُمْ

أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ لَوْ نَشَاء جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِؤُونَ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِّلْمُقْوِينَ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ))

أمّا الآية الثانية فهي مفتتح سورة الأعلى (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى){١} إنها تذكر نعم الله وقدرته وتفضله على عباده وهذا يستدعي تنزيها وتبرئه من النقص لذا فسّر الزمخشري (فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ) أحدث التسبيح بذكر اسم ربك ، أو أراد بالاسم:الذكر، أي: بذكر ربك، والمعنى: إنّه لما ذكر ما دلّ على قدرته وإنعامه على عبادة قال: فاحدث التسبيح وهو أنْ يقول: سبحان الله ، أمّا تنزيها له عمّا يقول الظالمون الذين يجحدون وحدانيته ويكفرون نعمته، وأمّا تعجبا من أمرهم في غمط آلائه ، وأمّا شكرا لله على النعم[١٢] .

فالتسبيح عند الزمخشري هو إبراز كمال الله سبحانه وتنزيهه عن العيوب، وإنْ تعددت الأسباب المستدعية لذلك التسبيح غير أنني اتفق مع السّهيلي في تضمين الفعل معنى آخر ولكن ليس بالضرورة أنْ يكون المعني هو الصلاة ، فالسياقات المتقدمة تشير إلى معنى آخر، وأغلب الظن أنّ هذا المعنى هو الاستعانة بالذات الإلهية ، وقريب من هذا قول ابن عاشور ((وكل مقام يقصد فيه طلب التيسير والعون من الله تعالى يُعدّى الفعل المؤول لعلم الذات باعتبار ماله من صفات الخلق والتكوين كما في قوله تعالى: (فاسْجُدْ له) وقوله في الحديث :(اللّهمّ بِكَ نصبحُ وبِكَ نُمسي) أي: بقدرتك ومشيئتك، وكذلك المقام الذي يقصد فيه توجه الفعل إلى الله تعالى كقوله تعالى: (فاسْجُدْ له)[١٣] .

أمّا قوله :(سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى) فلا يراد به إلاّ التنزيه المجرد وتبرئة الله سبحانه من النقص قال الزجاج : ((قوله عزّ وجلّ (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى) أي : نزّه ربك عن السّوء وقل سبحان ربي الأعلى))[١٤]. وقد يلجأ بعض المفسرين إلى استعمال العرب دون أنْ يشير إلى الأثر المعنوي لاستعمال الباء وعدمه من ذلك قول الطبري: ((والعرب تدخل الباء أحيانا في التسبيح وتحذفها أحيانا فتقول: سبّح بحمدِ اللهِ ،وسبّح حمدَ اللهِ، كما قال جلّ ثناؤه (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى) الأعلى ١ ، وقال في موضع آخر (فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ) (الواقعة ٧٤)[١٥].

٢- المخالفة بين (على) و(الباء) :

تحدّث السّهيلي عن مسألة التوكيد بالنفس والعين ، وقال: إنّ ((من فوائد هذه المسألة أنْ يُسأل عن المعنى الذي من أجله قال :(وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي))(طه ٣٩) بحرف (على) ، وقال في موضع آخر: (تجري بأعيننا) ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا (القمر ١٤)،وكذلك (وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا)[١٦](هود٣٧) ثم ذكر الفرق بين الموضعين، فالآية الأولى وردت في إظهار أمر كان خفيا وإبداء ما كان مكتوما ، فان الأطفال إذْ ذاك كانوا يغذون ويصنعون سرا، فلما أراد الله أن يصنع موسى ويغذيه و يربيه على حال امن وظهور أمر، لا تحت خوف واستتار دخلت (على) في اللفظ تنبيها على المعنى، لأنها تعطى معنى الاستعلاء ، والاستعلاء ظهور وابتداء ، فكأنه يقول سبحانه : (ولتصنيع على امن لا تحت خوف) وذكر

العين لتضمنها معنى الرعاية والكلاءة، حين استعمل الباء في قوله: (تجري بأعيننا) لأنه يريد الرعاية والحفظ ، ولا يريد إبداء شيء ولا إظهاره فلم يحتج في الكلام إلى معنى (على)[١٧] .

فقد طغى على التراكيب جو الخوف والرعب ، فأراد التعبير القرآني أن يبين مدى الرعاية الإلهية والمنة العظيمة التي منح الله تعالى إياها لموسى (عليه السلام) فبعد الخوف والتستر يأتي الظهور والاستعلاء و (على) تأتي لاستعلاء الشيء[١٨] ، غير أنّ هذا الاستعلاء والظهور فضلا عن كونه ماديا له دلالة معنوية أيضا بدلالة قوله: (عيني) ، فالضمير يعود لله تعالى أي: ((لتربى ويحسن إليك وإنا مراعيك وراقبك ، كما يراعي الرجل الشيء بعينه إذا اعتنى به)) [١٩] .

فمجيء (على) إذن إشارة إلى الخير الذي عمّ موسى من ربّه سبحانه، وهذا ينافي ما ذهب إليه المرتضى من أنّ (على) لا تأتي إلا في موضع الشر إذ يقول: ((وللعرب في هذا مذهب طريف ، لأنهم لا يستعملون لفظة (على) في مثل هذا الموضع إلّا في الشّر والأمر المكروه الضار ، ويستعملون اللام وغيرها في خلاف ذلك، ألا ترى أنهم لا يقولون عمرت على فلان ضيعته، بدلا من قولهم: خربت عليه ضيعته، ولا ولدتْ عليه جاريتُه ، بل يقولون: عمرتْ له ضيعتُه، وولدتْ له جاريتُه، وهكذا من شأنهم إذا قالوا: (قال عليّ) و(روى عليّ) فإنه يقال في الشر والكذب، وفي الخير والحق ، يقولون:(قال عنّي) و(روى عنّي) ومثل ذلك قوله تعالى: (وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ) (البقرة:١٠٢)؛ لأنهم لما أضافوا الشر والكفر إلى ملك سليمان حسن أنْ يقال: (يتلون عليه) ولو كان خيرا لقيل عنه))[٢٠]

وممّا يرد هذا ما ورد عن الفراء بأنّه ضمن (على) في هذه الآية معنى (في) آي: (في ملك)[٢١] . أمّا ما يتعلق في استعمال الباء في آيتي القمر وهو (فلا يراد بها إبداء شيء وإظهاره كما ذهب إلى ذلك السّهيلي ، قال تعالى من سورة القمر :((فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ. فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاء بِمَاء مُّنْهَمِرٍ. وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَاء عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ.وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ.تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاء لِّمَن كَانَ كُفِرَ)) (القمر:١٠-١٤) .

ومن سورة هود قال تعالى: ((وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ.وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ)) (هود ٣٦-٣٧) . فسياق الآيات الكريمة تتحدث عن نوح (عليه السلام)، ومعاناته مع قومه الكفار ولاشك أنّ صنع السفينة وجريانها أمر ظاهر للعيان ليس خافيا على احد، لذا جاءت الباء لتدل على أن صنع السفينة وجريانها أمر لم يتم لولا رعاية الله وحفظه لنوح ، لذا اقترنت بلفظة العين دون غيرها من الألفاظ ، وتجري بأعيننا ، واصنع الفلك بأعيننا (أي بحيث نرى ونحفظ))[٢٢] .

فالمتأمل لدلالة الباء مع لفظة العين يجد أنها لا تخرج عن معنى الاستعانة كما يقال بتوفيق الله حججت ، وهذا المعنى مجاز عن الإلصاق الذي يعد الدلالة الأصلية للباء[٢٣] .

٣- المخالفة في التاء بين الاستعمال وعدمه :

ذكر السّهيلي أنّ استعمال التاء وتركها قد يستوي في مواضع معينة غير أنّ الاستعمال القرآني للتاء منوط بالمعنى ومرتبط بالسياق إذ قال: ((فإذا استوي ذكر (التاء) وتركها في الفعل المفعول عن الفاعل المؤنث ، فما الحكمة لاختصاصها في الفعل في قصة شعيب، وحذفها في قصة صالح في قوله: ((وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ))(هود :٦٧). فالجواب: إنّ الصيحة في قصه صالح في معنى العذاب والخزي ، إذ كانت منتظمة بقوله سبحانه وتعالى: (وَمِنْ خِزْيِ

يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ)) (هود:٦٦). فصارت الصّيحة عبارة عن ذلك الخزي وعن العذاب المذكور في الآية، فقوي التذكير بخلاف الآية الأخرى ، والله أعلم))[٢٤] .

فالتذكير في قصة صالح ، لدلالة (الصيحة) على معنى العذاب والخزي ، فاللفظ مؤنث والمعنى مذكر أما في قصة شعيب فقد اختصت التاء بالفعل وذلك في قوله تعالى : ((وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ))(هود ٩٤) . فتأنيث الفعل؛ لأنّ اللفظ مؤنث ، وهذا ما ذكره القرطبي أيضا إذ قال: ((وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ) . أي: صيحة جبريل وأنّث الفعل على لفظ الصّيحة، وقال في قصة صالح :(وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ) فذكر على معنى الصياح))[٢٥].

وهذا ما أجازته قاعدة التذكير والتأنيث ، قال المبرد:(إنّما صلح أنْ يقول:(وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ) ، لأنّه ليس تحت ذا معنى له حقيقة تأنيث وكل شيء كان مؤنثا من غير الحيوان فإنّما تأنيثه للفظ ، ولك كان تذكره على معناه[٢٦] . ونظير ذلك قوله تعالى : (فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلاَلَةُ) (النحل:٣٦) وقوله ((فَرِيقاً هَدَى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاَلَةُ) (الأعراف: ٣) .

ذكر السّهيلي أنَّ كلام الحكيم الخبير ليس كغيره من الكلام لإعجازه في الأسلوب والانتظام ، والفرق بين الموضعين المتقدمين لائح من وجهين لفظي ومعنوي . أمّا اللفظي فهو إنّ الحروف الحواجز بين الفعل وفاعله في قوله: (حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاَلَةُ) أكثر منها في قوله (حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلاَلَةُ) وقد تقدم أنّ الحواجز بين الفعل والفاعل كلما كثرت كان حذف التاء أحسن . وأمّا الفرق من جهة المعنى فان (من) في سورة النحل واقعة على الأمة –هي مؤنثة لفظا ، ألا تراه يقول سبحانه ((ولقد بعثنا في كل أمة رسولا)(النحل:٣٦) ثم قال تعالى: (وَمِنْهُم حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلاَلَةُ): أي: من الأمم ضلّت أو حقت عليها الضلالة وليس كذلك قوله تعالى:(وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاَلَةُ)؛ لأنّ المعنى وفريقا ضلوا ، بغير تاء في اللفظ ، فليحسن حذفها إذا فيما هو في معناه[٢٧] . وهذا الفرق هو الذي يتماشى مع روح النص القرآني المنتظم الذي يأخذ بعضه برقاب بعض ، فلا يؤخذ اللفظ متجزئا ، بل لا بد من أن يرتبط بسياق تتضح من خلاله الفروق الدلالية التي تستدعي اختصاص الفعل بالتاء في موضع ، وحذفها في موضع آخر لا يستدعيه السياق .

المخالفة بين (لا) و(لن) :

يرى السّهيلي أنّ الألفاظ مشاكلة للمعاني التي هي أرواحها ، وبناء على هذا فان (لا) لام بعدها ألف، يمتد بها الصوت ما لم يقطعه تضيق النفس ، فإذا امتداد لفظها بامتداد معناها و(لن) بعكس ذلك، لذا جاء (لا) في قوله تعالى:(وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ)(الجمعة:٧) في الموضع الذي اقترن فيه حرف الشرط بالفعل فصار من صيغ العموم، فانسحب على جميع الأزمنة، وهو قوله عز وجل: ((إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاء لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ)) (الجمعة :٦) كأنه يقول: متى ما زعموا ذلك لوقت من الأوقات، أو زمن من الأزمان وقيل لهم: (تمنُوا الموتَ)، فلا يتمنونه، و حرف الشرط دلّ على هذا المعنى، وحرف (لا) في الجواب بإزاء صيغة العموم، لاتساع النفي فيها . وقال في سورة البقرة:(وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ)(البقرة:٩٥) فقصر من سعة النفي وقرب ؛ لأنّ قوله تعالى :(قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) (البقرة ٩٤) وليست (إنْ) مع (كان) من صيغ العموم ؛ لأنّ كان ليست بدالة على حدث، إنّما هي داخلة على المبتدأ والخبر عبارة عن مضي في الزمان الذي كان فيه ذلك الحدث ، فكأنّه يقول عزّ وجلّ: إنْ كانت قد وجبت لكم

الدار الآخرة وثبت لكم في علم الله –تعالى – فتمنوا الموت الآن ، ثم قال في الجواب: (وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً)، فانتظم معنى الجواب بمعنى الخطاب في الآيتين جميعا[٢٨].

يُفهم من هذا إنّ النفي بـ (لا) أدلّ على الإطلاق والعموم، فينسحب على الأزمنة جميعا الحاضر والمستقبل ، أي: متى ما طلب منهم أنْ يتمنوا الموت لا يفعلون ، هذا الإطلاق متأت من الألف الممتدة مع النفس فجاء امتداد الزمن لامتداد الألف ، على حين استعمل القرآن (لن) في التركيب الذي لا يتسع فيه نطاق الزمن ؛ لأنّ النون مقيدة بعكس الألف فجاء التقييد مناسبا للمعنى المراد ، فمجيء (إنْ) مع (كان) لا يفيد الإطلاق والعموم ؛ لأنّ (كان) لا تدل على الحدث، فجاء الجواب بـ(لن) ليتناسب مع التركيب الذي لا يفيد العموم بل قصر فيه من سعة النفي وقرب. ولعلّ السّهيلي لاحظ دلالة (لا) واستعمالاتها حين علّل مجيئها في تركيب فيه دلالة على الإطلاق والعموم ، فهي تأتي لنفي المستقبل والحال، وقد تدخل على الماضي بمعنى لم .

على حين اختصت (لن) بنفي المستقبل[٢٩] ، فالفروق الدقيقة بين الأداتين فرضتها طبيعة الاستعمال فضلا عن مشاكلة الصوت للمعنى ، وهذا الأمر لم يلتفت إليه الزمخشري ، إذ لا يرى فرقا بين (لا) و(لن) قال: ((ولا فرق بين (لا) و(لن) في أنّ كل واحدة منهما نفي للمستقبل ، إلا أنّ في (لن) تأكيدا وتشديدا ليس في (لا) فأتى مرة بلفظ التأكيد (وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً) ومرة بغير لفظة (وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً))[٣٠] . فلم يلتفت الزمخشري إلى الفروق الدلالية بين الأداتين سوى أنّ (لن) تدلّ على التوكيد فجيء بها في موضع يستدعي ذلك ، أمّا الدلالة الزمنية فلا فرق بينهما؛ لأنّ كليهما تدل على المستقبل ، وقريب من هذا المعنى ما جاء في البحر المحيط ((وإنّما قال هنا (وَلَن يَتَمَنَّوْهُ) وفي سورة الجمعة: (وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ)؛ لأنّ دعواهم هنا أعظم من دعواهم هناك ؛ لأنّ السعادة القصوى فوق مرتبة الولاية ؛ لأنّ الثانية تراد لحصول الأولى، و(لن) أبلغ في النفي من (لا) فجعلها للنفي الأعظم))[٣١] .

المبحث الثاني: المخالفة بين الأسماء:

تعددت أوجه المخالفة في الأسماء وهذا التعدد يضفي على التراكيب معاني مختلفة، ممّا يجعلها أكثر ثراء من حيث الدلالة فقد يُؤثِر سياق ما استعمال لفظ معين، على حين جاءت سياقات أخرى بلفظ آخر أدل على المراد من هذا اللفظ، وقد يؤثِر سياق استعمال جمع معين ، وسياقات أخرى جاءت بجمع آخر فضلا عن الاختلاف في التعريف والتنكير واللفظ واحد ويمكن أنْ نقف على هذا الاختلاف على النحو الآتي:

١- المخالفة في الألفاظ :

تنبّه السّهيلي إلى إن لفظ (الصراط) جاء في أكثر المواضع في القرآن ، ولم يستعمل هذا اللفظ في سورة الأحقاف، بل آثر التعبير القرآني لفظ (الطريق)[٣٢]. فقال : {قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ }(الأحقاف:٣٠).

والجواب على ذلك؛ لأنّه انتظم بقوله:{ سَمِعْنَا كِتَاباً أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى}. وإنّما أراد أنّه سبيل مطروق قد مرت عليه الرسل قبله، وانّه ليس ببدع، ما اقتضته البلاغة والإعجاز لفظ (الطريق)؛ لأنّه (فَعِيل) بمعنى (مَفْعُول) أي :إنّه مطروق مشت عليه الرسل والأنبياء قبل، وليس في المواضع الأُخر ما يقتضي هذا المعنى ، فكان لفظ الصراط بها أولى؛ لأنّه أمدح من جهة الاشتقاق والوزن[٣٣]. أمّا الاشتقاق فمن (سرطَ الشيءَ أسْرطَه)، إذا بلعته بلعا سهلا، فالصراط هو الطريق

السّهل القويم، وجاء على وزن (فِعَال)؛ لأنّه مشتمل على سالكه اشتمال الحلق على الشيء المسروط، وهذا الوزن كثير في المشتملات على الأشياء كاللحاف والخمار والرداء[٣٤] . إنّما احتاجت المواضع الأُخر المدح فاختير لها لفظ(الصراط)؛ لارتباطه بالهداية في أغلب هذه المواضع، على حين لم يرد لفظ (الطريق) معبرا عن الهداية إلاّ في سورة الأحقاف.

٢- المخالفة من حيث الإفراد و الجمع:

ورد لفظ السّماء مفردا في سورة يونس، قال تعالىّ {قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللّهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ }. (يونس:٣١). وجمعا في سورة سبأ ، قال تعالى: {قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ })(سبأ:٢٤).

ومردّ ذلك عند السّهيلي الى أنّ لفظ السّماء قد يرد عبارة عن كل ما علا من السّماوات فما فوقها إلى العرش وغير ذلك من المعاني العلوية المختصة بالربوبية، فيكون اللفظ بصيغة الإفراد كالوصف المعبر عن الموصوف وقد يكون السّماء عبارة عن السّماء الدنيا عرفا ، ويكون عبارة عن السّحاب الذي ينزل منه الماء، وكان المخاطبون في يونس مقرين بنزول الرزق من هذه السّماء، أي: الرزق المحسوس كالغيث وقد قال في آخر الآية: (فَسَيَقُولُونَ اللّهُ)، فلما انتظم هذا الكلام بما قبله لم يصلح في النظم إلاّ ذكر السّماء مفردة ؛ لأنّهم لا يقرون بما ينزل من فوق ذلك من الرزق المعقول والرحمة بالعباد كالوحي الذي به حياة الأرواح والأجساد، بل ينكرون ذلك، فوردت السّماء فيها بلفظ الإفراد ، بخلاف الآية الأخرى ، فانه لم ينتظم بها ذكر إقرارهم بما ينزل من الرزق ، لكنه قال تعالى: ((قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ)، فأمر نبيه بهذا القول الذي هو تصديق لنزول الرزق والخير هو الحكم والعلم، وهو أفضل الرزق من فوق سبع سموات، وأمّا الرزق من الأرض فيصلح ذكره في الاثنين جميعا، إذ لا ينكر رزق الأرض وما ينزل من الغيث من هذه السماء بر ولا فاجر[٣٥].

وثمة أمر لم يلتفت إليه السّهيلي إنّ آية سبأ قد سبقت بقوله: {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ }.(سبأ ٢٢)، وهذا حجاج للكفار على عجز ما يعبدون من دون الله بأنهم لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، فجاء هذا مناسبا ومقابلا لقوله: {قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ}، فمعبودكم عاجز على نحو مطلق والله قادر ورازق في السموات والأرض، فمن أولى بالعبادة ؟ فقد جمع (السموات) في حجاج الكفار ليقابل الجمع نفسه في إثبات قدرة الله.

٣- المخالفة بين الجموع:

اقتضى الإعجاز البياني للقرآن استعمال جمع في موضع، واستعمال غيره في موضع آخر فمن ذلك قوله تعالى: { وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ }. (الحج٢٦) . فكان جمع (سُجُود) على وزن (فُعُول) هو المختار لهذا السياق، ولم يقل :(السُّجَّد) كما قال: (الرُّكَّع) وكما قال في آية أخرى:{رُكَّعاً سُجَّداً } .(الفتح٢٩) . فلا بد من حكمة تقتضي أنْ يجمع (ساجِد) على (سُجُود) ولم يجمع (راكِع) على(رُكُوع) ؟

والجواب: إنّ السُّجُود ـ في أصل موضوعه – عبارة عن الفعل ، وهو في معنى الخشوع والخضوع ، وهو يتناول السجود الظاهر والباطن ولو قال :(السُّجد) جمع (ساجِد) لم يتناول إلّا المعنى الظاهر، وكذلك الركع، إلاّ تراه يقول: { تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً}: يعني رؤية العين، وهي لا تتعلق إلاّ بالظاهر، والمقصود ها هنا الركوع الظاهر لعطفه على ما قبله ممّا يراد به قصد البيت، والبيت لا يتوجه إليه إلاّ بالعمل الظاهر، وأمّا الخشوع والخضوع الذي يتناوله لفظ(الركوع) دون لفظ الركع فليس مشروطا بالتوجه إلى البيت .

وأمّا (السُّجود) فمن حيث أنبأ عن المعنى الباطن، جعل وصفا للركع ومتمما لمعناه، إذ لا يصح الركوع الظاهر إلاّ بالسجود الباطن[٣٦] . وهذا المقتضى البياني قد تنبه إليه الزركشي في البرهان إذ قال : ((هلا قيل السُّجد كما قيل الرُّكّع، وكما جاء في آية أخرى (تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً) والجواب إنّ السُّجود يطلق على وضع الجبهة بالأرض وعلى الخشوع، فلو قال (السُّجد) لم يتناول إلاّ المعنى الظاهر ومنه (تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً) وهو من رؤية العين ، رؤية العين لا تتعلق إلّا بالظاهر فقصد بذلك الرمز إلى السُّجود المعنوي، والصوري، بخلاف الركوع، فانه ظاهر في إعمال الظاهر يشترط فيها البيت كما في الطواف والقيام المتقدم دون إعمال القلب))[٣٧]. وقد ذهب إلى ذلك أيضا ابن قيم الجوزية إذ قال:((فان قيل: فلم قال(السُّجود) على وزن فُعُول، ولم يقل (السُّجّد) كالرُّكّع وفي آية أخرى (ركعا سجدا) ولِمَ جمع (ساجِد) على (السُّجُود) ولم يجمع (راكِع) على (الرُّكُوع) ؟ فالجواب السجود في الأصل مصدر كالخشوع والخضوع وهو يتناول السجود الظاهر والباطن ولو قال: (السُّجَّد) في جمع (ساجِد) لم يتناول إلّا المعنى الظاهر وكذلك الرُّكّع ، ألا تراه يقول:{ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً }. وهذه رؤية العين وهي لا تتعلق إلا بالظاهر))[٣٨].

وقد أغفل الدكتور أحمد مختار عمر هذه المعاني الجليلة التي اقتضت استعمال جمع(السجود) واكتفى بالقول بأنها جاءت لملاءمة الفاصلة إذ قال: (أما كلمة (سُجُود) فقد وردت مرتين في القرآن الكريم جمعا لساجِد ، وفي ختام آيتين هما قوله تعالى: (وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ) (البقرة١٢٥-الحج٢٦) وختمت الآيتان بهذه الصيغة مع توقع الصيغة الأخرى لملاءمة الفاصلة))[٣٩]. والراجح عندي ما ذهب إليه العلماء الأجلاء من أنّ المراد بالسُّجود الظاهر والباطن وهو في معنى الخشوع والخضوع ، وهذا يتناسب مع الركوع الظاهر؛ لأنّ البيت لا يتوجه إليه إلّا بالعمل الظاهر فجمع بين لفظين اقتضى الأول الظاهر والباطن، واقتضى الثاني الظاهر فقط.

٤- المخالفة بين التعريف والتنكير :

قد يرد اللفظ معرفا في موطن ، نكرة في موطن آخر، ولا يخلو ذلك من دقائق معنوية لها اثر في التراكيب ، فمن ذلك تعريف (الصراط المستقيم) بالألف واللام في سورة الفاتحة على حين جاء نكرة في قوله تعالى: {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}، (الشورى:٥٢)؟ وقوله: {وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً } (الفتح ٢)؟ والجواب على ذلك إن الألف واللام إذا دخلت على اسم موصوف اقتضت انه أحق بتلك الصفة من غيره، ألا ترى قولك: (جالس فقيها أو عالما، ليس كقولك: جالس الفقيه أو العالمَ؟ وقوله عليه الصلاة والسلام: (أنت الحقُ ووعدك الحقُ) ثم قال: (ولقاؤك حق والجنة حق، والنار حق) فلم يدخل الألف واللام على الأسماء المحدثة، وادخلها على اسم الباري –سبحانه وتعالى- وما هو صفة له، وهو القول والوعد.

فإذا ثبت هذا فلو قال: (صراطا مستقيما) لكان الداعي إنّما يطلب الهداية على صراط مستقيم على الإطلاق، وقد علم أنه على صراط مستقيم وهو الإسلام ، فإنما يطلب ما هو أقوى من طريقته التي هو عليها في علمه، لان كل فريق من المسلمين مستقصر لنفسه في العمل، وراغب إلى ربه في التوبة والهداية إلى الأفضل[٤٠] .

ويفهم من كلام السّهيلي أنّ التنكير فيه دلالة على العموم والإطلاق والتعريف فيه خصوصية، لذا يتطلب من المسلمين إن يطلبوا الهداية إلى طريق واضح مستقيم لا اعوجاج فيه وهو طريق الإسلام ، لذا نرى ابن القيّم يقول: ((ذكر الصراط المستقيم منفردا معرفا بتعريفين، تعريفا باللام وتعريفا بالإضافة، وذلك يفيد تعيينه واختصاصه وانه صراط واحد ، وأمّا طرق أهل الغضب والضلال فانه سبحانه يجمعها ويفردها))[٤١] . وقد ذكر الدكتور فاضل السامرائي أنّ هذا الطريق قد وصف بالاستقامة ((ليدل على أنّه اقصر الطرق وأقربها إلى المطلوب فلا يشق على السالك وما عداه من الطرق معوج ، ولا يوصل إلى المقصود فإنّه لا يوصل أكثر من مستقيم واحد بين نقطتين))[٤٢]. أمّا قوله تعالى: {وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً } فلا شك أنّ النبي (صلّى الله عليه واله وسلّم) كان على الصراط الأقوم، فضلا عن صراط مستقيم على الإطلاق غير أنّ هذه الآية نزلت في صلح الحديبية وكأنَّ المسلمين كرهوا ذلك الصلح ورأوا أنّ الرأي خلافه ، وكان الله ورسوله أعلم فانزل الله تعالى هذه الآية فلم يرد صراطا مستقيما في الدين، وإنما أراد صراطا مستقيما في الرأي والحرب والمكيدة .

أمّا قوله تعالى: (وانك لتهدي إلى صراط مستقيم) فالمراد الهداية من الكفر والضلال إلى صراط مستقيم ، ولو قال في هذا الموطن:(الصراط المستقيم) لجعل للكفر والضلال حظا من الاستقامة ، إذْ الألف واللام تنبيء إن ما دخلت عليه من الأسماء الموصوفة أحق بذلك المعنى مما تلاه في الذكر أو ما قرن به في الوهم ، ولا يكون أحق به إلاّ الأمر فيه طرف منه[٤٣]. ونظير ذلك لفظ(السّلام)، إذ جاء معرفا بالألف واللام في قول المسيح –عليه السّلام ({وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ)(مريم:٣٣) . وجاء نكرة في قوله تعالى : {سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ } (الصافات١٠٩)وقوله تعالى {سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ })(الصافات ٧٩).

وفائدة تعريف (السّلام) يشعر بذكر الله سبحانه، لان السلام من أسمائه تعالى، ويشعر بطلب معنى السلامة منه، لأنك متى ذكرت اسما من أسمائه فقد تعرضت لطلب المعنى الذي اشتق ذلك الاسم منه أيضا، ويشعر بعموم التحية وإنها غير مقصورة على المتكلم[٤٤] . والمسيح- عليه السّلام يحتاج كلامه إلى هذه الفوائد الثلاثة، وأوكدها العموم؛ لأنه مستحيل أنْ يقع سلامه على نفسه خاصة، ويبعد رغبته عن ذكر مولاه، وتركه التعرض لمعنى الاسم ومقتضاه[٤٥]. وقريب من هذا قول الزجاج في هذه الآية: (فالسّلام مصدر سلمت سلاما، ومعناه :عموم العافية والسلامة ، والسلام جمع سلامة، والسلام اسم من أسماء الله – جل وعلا))[٤٦] .

أما حذف الألف واللام من قوله تعالى {سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ } (الصافات١٠٩) و {سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ } (الصافات ٧٩) لاستغناء هذه المواطن عن الفوائد الثلاث التي تقدم ذكرها؛ لأنّ المتكلم ههنا هو الله سبحانه، فلم يقصد تبركا بذكر الاسم الذي هو السّلام، ولا تعرضا وطلبا كما يقصده العبد ، ولا عموما في التحية منه ومن غيره ؛ لأنّ سلاما منه –سبحانه كاف من كل سلام، ومغنٍ عن كل تحية ، فلم يكن لذكر الألف واللام معنى ههنا.[٤٧]

الخاتمة

تميز السّهيلي بذكاء متوقد وقدرة فائقة في استنطاق النصوص القرآنية لتتجلى له الفروق الدقيقة بين التراكيب وقد توصلت بعد وقوفي على هذه الفروق إلى نتائج أهمها:

١- فرّق السّهيلي بين دخول الباء في قوله تعالى (سبح باسم ربك العظيم) وعدم دخولها في قوله تعالى ({سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى} إن التسبيح في الآية الأولى قد يضحى معنى آخر مضافا إلى معنى التنزيه والذكر وهو الصلاة أمّا الآية الثانية فالتسبيح فيها يدل على التنزيه والذكر دون معنى يقترن به لذا لم تدخل الباء فيها، والرأي عندي إن العودة إلى الآيات السابقة قد ترشد إلى دلالة التسبيح وقد سبقت الآية الأولى بتراكيب تذكر نعم الله وقدراته وتفضله على عباده وهذا يستدعي تنزيها وتبرئة من النقص ولا اختلف مع السّهيلي في تضمين الفعل معنى آخر ولكن ليس بالضرورة إن يكون المعنى هو الصلاة ، اغلب الظن أنّ هذا المعنى هو الاستعانة بالذات الإلهية . أمّا الآية الثانية فلا يراد بها إلّا التنزيه المجرد وتبرئة الله سبحانه من النقص ، إذ جاءت مفتتحة لسورة الأعلى .

٢- تميز السّهيلي عن غيره من العلماء بملاحظة الفروق الدقيقة بين أداتي النفي (لا) و(لن) ، إذ يرى أنّ (لا) لام بعدها ألف يمتد بها الصوت ما لم يقطعه تضيق النفس، وامتداد لفظها تتبعه امتداد معناها و(لن)بعكس ذلك لذا جاءت (لا) دالة على جميع الأزمنة، وهذا لا ينطبق على (لن) ، وهذا الفرق لم يلتفت إليه الزمخشري وأبو حيان إذ ذكرا أنّ (لن) تدل على التوكيد، وهذا ما تتميز به عن (لا) .

٣- يستنبط السّهيلي دلالة اللفظ داخل التركيب من خلال علاقته بالتراكيب السابقة ، فمن ذلك لفظ (الطريق) ، إذْ لم يستعمل إلّا في سورة الأحقاف في قوله تعالى: {قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ }. (الاحقاف٣٠) .

والسبب في ذلك انه انتظم بقوله: (سمعنا كتابا انزل من بعد موسى) وإنما أراد انه سبيل مطروق قد مرت عليه الرسل قبله ، وانه ليس ببدع، فاقتضت البلاغة والإعجاز لفظ(الطريق) وليس في المواضع الآخر ما يقتضي هذا المعنى فكان لفظ الصراط بها أولى؛ لأنّه أمدح من جهة الاشتقاق والوزن ، واغلب الظن عندي أن المواضع الأخرى احتاجت المدح فاختير لها لفظ(الصراط)؛ لارتباطه بالهداية في أغلب هذه المواضع، على حين كم يرد لفظ الطريق معبرا عن الهداية إلّا في سورة الأحقاف .

٤- علّل السّهيلي جمع لفظ (السموات) في قوله تعالى: {قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ } (سبأ٢٤) .

٥- انه لم ينتظم بها ذكر إقرار الناس بما ينزل من الرزق المعقول والرحمة بالعباد كالوحي الذي به حياة الأرواح والأجساد بل ينكرون ذلك ، فأمر نبيه بهذا القول الذي هو تصديق لنزول الرزق والخير هو الحكمة والعلم-هو أفضل الرزق- وثمة أمر آخر استدعى جمع(السموات) لم يلتفت إليه السّهيلي وهو إن الآية الكريمة قد سبقت بقوله تعالى: {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ)}، وهذا إثبات لعجز ما يعبدون من دون الله بأنهم لا يملكون مثقال ذرة في السموات فجمع السموات لتتناسب مع جمعها في إثبات رزق الله في السموات والأرض ، فشتان بين عجز معبودهم عن ملك شيء في السموات، وقدرة الله على الرزق في السموات .

هوامش البحث

(١) ينظر: طبقات المفسرين ،١٩٧ ،وفيات الأعيان ١٤٣/٣ .

(٢) ينظر: وفيات الأعيان ١٤٣/٣ .

(٣) تذكرة الحفاظ ١٣٤٨/٤ .

(٤) وفيات الأعيان ١٤٤/٣ .

(٥) ينظر: تذكرة الحفاظ ١٣٤٨/٤ .

(٦) ينظر: تذكرة الحفاظ ١٣٤٩/٤ .

(٧) ينظر :طبقات المفسرين ١٩٧ ، وفيات الأعيان ١٤٣/٣ .

(٨) نتائج الفكر في النحو ٣٦ .

(٩) المصدر نفسه ٣٦-٣٧ .

(١٠) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٩٥/٥ .

(١١) ينظر: شرح الرضي على الكافية ٢٨٠/٤ .

(١٢) ينظر: الكشاف ٤٦٦/٤ .

(١٣) التحرير والتنوير ٨٥/١ .

(١٤) معاني القرآن وإعرابه ٢٤١/٥.

(١٥) جامع البيان ٣٥/١١ .

(١٦) نتائج الفكر في النحو ٢٣٠.

(١٧) المصدر نفسه .

(١٨)ينظر: حروف المعاني ٦٥ .

(١٩) الكشاف ٦٥/٣ .

(٢٠) أمالي المرتضى ٣٥٢/١ .

(٢١) معاني القران للفراء٦٣/١. .

(٢٢) المفردات في غريب القرآن ٣٥٨ .

(٢٣) ينظر: شرح الرضي على الكافية ٢٨٠/٤ .

(٢٤) نتائج الفكر في النحو ١٣١-١٣٢.

(٢٥) الجامع لأحكام القرآن ٨٠/٩ .

(٢٦) المذكر والمؤنث ٩٧ .

(٢٧) ينظر نتائج الفكر في النحو ١٣٢-١٣٣ .

(٢٨) ينظر: نتائج الفكر في النحو١٠١-١٠٢ .

(٢٩) ينظر: حروف المعاني ٨ .

(٣٠) الكشاف ٥٣٢/٤ .

(٣١) البحر المحيط ٤٧٩/١ .

(٣٢) ينظر: نتائج الفكر في النحو ٢٣٤ .

(٣٣) المصدر نفسه ٢٣٦.

(٣٤) المصدر نفسه ٢٣٦ .

(٣٥) ينظر: نتائج الفكر في النحو ١٢٤- ١٢٥.

(٣٦) ينظر: نتائج الفكر في النحو ٢١٥ .

(٣٧) البرهان في علوم القرآن ٢٥٠/٣-٢٥١ .

(٣٨) بدائع الفوائد ٦٥/١-٦٦ .

(٣٩) دراسات لغوية في القرآن الكريم وقراءاته ٢٢٩.

(٤٠) ينظر: نتائج الفكر في النحو٢٣٥ .

(٤١) التفسير القيم ١٤-١٥ .

(٤٢) لمسات بيانية ٤٥ .

(٤٣) ينظر: نتائج الفكر في النحو ٢٣٦ .

(٤٤) المصدر نفسه ، ٣٢٠ .

(٤٥) نتائج الفكر في النحو ٣٢٠ .

(٤٦) معاني القرآن وإعرابه ٢٦٩/٣ .

(٤٧) ينظر: نتائج الفكر في النحو ٣٢٠ .

المصادر والمراجع

١- أمالي المرتضى: الشريف المرتضى ، أبو القاسم علي بن الحسين ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الكتاب العربي ، ط٢ ، بيروت-لبنان-١٣٨٧هـ -١٩٦٧م .

٢- البحر المحيط : أبو حيان الأندلسي ، تحقيق الشيخ عادل أحمد وعلي محمد ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان .

٣- بدائع الفوائد : ابن قيم الجوزية –الطباعة المنيرية .

٤- البرهان في علوم القرآن : الزركشي ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية ، ط١ ، ١٣٧٦هـ-١٩٥٧م .

٥- التحرير والتنوير، ابن عاشور محمد طاهر ١٩٧٢م .

٦- تذكرة الحفاظ : محمد بن احمد بن عثمان بن قايماز الذهبي ، دون طبعة أو تاريخ .

٧- التفسير القيم ، ابن القيم ، جمع محمد أويس الندوي ، مطبعة السنة المحمدية ،١٣٨٦هـ-١٩٧٣م .

٨- جامع البيان عن تأويل أي القران : الطبري – أبو جعفر محمد بن جرير ، مطبعة دار الفكر ، بيروت .

٩- الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي ، محمد بن احمد بن أبي بكر الأنصاري ، دار إحياء التراث العربي ، مؤسسة التراث العربي –بيروت.

١٠- حروف المعاني : أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي ، تحقيق : د علي توفيق الحمد ، مؤسسة الرسالة ، دار الأمل ، ط١ ، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م .

١١- دراسات لغوية في القرآن الكريم وقراءاته : د. أحمد مختار عمر ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط٢ ، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م .

١٢- شرح الرضي على الكافية : محمد بن الحسن الرضي الاستراباذي ، تحقيق : يوسف حسن عمر ، مؤسسة الصادق ، ط٢ .

١٣- طبقات المفسرين / أحمد بن محمد الأدنروي ، تحقيق سليمان بن صالح الخزي ، مكتبة العلوم والحكم ن المدينة المنورة ط١، ١٩٩٧م.

١٤- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، أبو القاسم الزمخشري:تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٥- لمسات بيانية في نصوص من التنزيل : د فاضل صالح السامرائي ، دار الشؤون الثقافية ، ط١ ، ١٩٩٨م .

١٦- المذكر والمؤنث: أبو العباس محمد بن يزيد المبرد ، تحقيق : د.رمضان عبد التواب ود صلاح الدين الهادي ، مطبعة المدني ، مصر ، ط٢ ، ١٤١٧ هـ -١٩٩٦م .

١٧- معاني القرآن وإعرابه : أبو إسحاق إبراهيم بن السري الزجاج ، شرح وتحقيق د عبد الجليل شلبي ، دار الحديث ، القاهرة ،٢٠٠٤م .

١٨- معاني القرآن :الفراء ، تحقيق أحمد يوسف نجاتي ومحمد علي النجار ، دار الكتب المصرية ، ١٣٧٤هـ-١٩٥٥م .

١٩- المفردات في غريب القرآن : الراغب الأصبهاني ، راجعه وقدم له وائل أحمد عبد الرحمن ، المكتبة التوفيقية ، مصر .

٢٠- نتائج الفكر والنحو : أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله السّهيلي ، تحقيق الشيخ عادل أحمد ، والشيخ علي محمد ، دار الكتب العلمية ، بيروت –لبنان ، ط١ ، ١٤١٢هـ -١٩٩٢م .

٢١- وفيات الأعيان وأبناء الزمان :ابن خلكان ، تحقيق :د.إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت.